الوزراء والأشقياء غادروا محلة الفضل ولم يبق غير الكلام عنها!

بغداد / مفيد الصافي
تصوير :نهاد العزاوي

تقدم الحاج فؤاد علي القيسي بخطواته القصيرة على مهل داخل صحن جامع الفضل وجلس على الأريكة القديمة ، وبرغم برودة الجو إلا انه بدا معتاداً على هذا النوع من المقابلات. لقد فتح عينيه على الدنيا وهو في هذه المحلة الهادئة ولم يفكر بمغادرتها يوما واحدا ، ولم يفعل ذلك وهي مسكن أبيه وجده من قبل . كان يتطلع الى المحلة يوميا قبل ان يصل الى هنا ، ويعرف انها لاتزال تتنفس هواء الأزقة البغدادية الجميلة ، معاندة الزمن. وبين الأزقة المفتوحة والمغلقة أسرار رصافة بغداد . وما بين الفينة والفينة يواجهه صبية صغار يتقافزون من الأبواب وهم ذاهبون إلى مدرستهم.

المؤذن العجوز

بدا الحاج فؤاد علي القيسي الذي يبلغ السادسة والسبعين يتحدث عن الجامع الذي تحمل المحلة اسمه قائلا" سمي الجامع على اسم الامام محمد بن الفضل بن اليسار الاسفرائيني. وهو عالم ولد في مكة وتعلم الفقه في المدينة المنورة ثم جاء إلى بغداد لإكمال دراسة علوم الشريعة ليصبح بعد ذلك من كبار العلماء في بغداد ، درس على يديه عدد كبير من كبار العلماء والفقهاء وحينما توفي دفن بجوار مدرسته التي كانت تسمى المدرسة الفضلية. في المدينة كان على المذهب المالكي وفي بغداد أصبح على مذهب الإمام ابي حنيفة وكان يفتي على جميع المذاهب، وفي أواخر العصر العباسي وفي زمن الخليفة المستظهر امر ببناء مسجد بجوار مرقده تكريما له، وتجمع الناس حول الجامع حتى أصبحت المنطقة عامرة بالسكان وسميت باسمه .وفي عام ١٢٠٩ هجرية تمت اعادة بناء المسجد . وكان في المسجد مدرسة دينية- لم تعد موجودة الان- تخرج فيها كبار العلماء والفقهاء والأدباء مثل معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي ومن العلماء الذين تخرجوا فيها الإمام محمد الجاوي من اندونيسيا وتخرج منها علماء ومفكرون وعباقرة، ومن السياسيين نوري السعيد باشا، ومن المدرسين الشيخ المرحوم محمود شكري الالوسي(ابو الثناء) والعلامة الشيخ عبد الوهاب النائب واخوه الشيخ العلامة سعيد النائب وهما من العلماء الأجلاء . وفي مقبرة الجامع دفنا هما وعدد من اولادهما .عانى الجامع من الاهمال في العهود السابقة وهدمت مدرسته لتتحول الى محال تجارية في الستينيات .

القارئ القديم

للحاج فؤاد ولد واحد أصبح جدا الآن، تحدث عن نفسه قائلا " تخرجت في كلية الإمام الأعظم في عام ١٩٧٣ ودرست في الأزهر الشريف علم التجويد وتخرجت في المعهد العالي للقرآن في جامعة الازهر عام ١٩٦٦-١٩٦٨ ولدي شهادة وقع عليها الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي ومحمد الحصري ، كما درسني الشيخ عبد الباسط عبد الصمد والشيخ ابو العينين الشعيشع ومصطفى إسماعيل ، وفي بغداد درسني الشيخ المرحوم خليل اسماعيل والمرحوم الحاج محمود عبد الوهاب. لم تسأل الاوقاف عني يوما، وانا اعمل في الجامع مذ كان عمري خمس سنين ولولا اهتمام المواطنين بالجامع لعانى من اهمال شديد.

صندوق الصاج

تجول الحاج في الباحة الواسعة للجامع القديم ، القى ببصره على الدكة او المصلى الصيفي الذي تبلغ مساحته نحو ٣٠٠ متر مربع ، تعلوه سقيفة واسعة من اللوحات المعدنية التي تمنح ظلا واسعا في الصيف . نظر الى حديقة الجامع المواجهة للجدار المرتفع الذي تخللته النوافذ الأربع الكبيرة المقوسة . في الحديقة هناك شجرة نخل وشجرة برتقال وشجرة عنب صغيرة اجتمعن الى جانب (حب الماء) الفارغ. تقدم الى الحرم الرجالي وتوقف قرب المنبر الخشبي الذي توسط المكان متوجها إلى القبلة. ثم قرأ سورة الفاتحة على قبر الإمام محمد الفضل الذي كان يعلوه صندوق من الخشب العادي بلون بني بعد ان اخذت مديرية الأوقاف الصندوق الاصلي المعمول من الخشب الصاج ولم تعده منذ ذلك الزمن. والي اليمين منه هنالك الحرم النسائي الذي تصلي به النساء خاصة ايام الجمع.ثم خرج إلى الباحة من جديد وأشار الى المئذنة قائلاً المئذنة جميلة الشكل ولا تزال محتفظة ببهائها ... اعيد بناؤها عام ١٢٠٩ هجرية ، يزيد ارتفاعها على خمسين مترا .و رسمت على طولها في اماكن ثلاثة، أشكال هندسية اسلامية بالوان صفر وزرق.

المقبرة الجانبية

قبل ان يدخل الى المقبرة الصغيرة التي تقع في الجانب الشرقي من الجامع توقف الحاج فؤاد واخذ يقرأ لوحة من الرخام الابيض كتب عليها ستة أبيات للشاعر معروف الرصافي حينما كان طالبا في مدرستها ينعى فيها استاذه العلامة عبد الوهاب النائب الذي كان يدرس في مدرسة الجامع .. في ما يأتي هذه الابيات:

هنيت يا قبر بمن حوى
شريعة المولى الرؤوف الرحيم
قد كان يحيي القلب في عظة
ويرشد السالك والمستفيد
كان من الأخلاق تمثالها وفي
التقى كان بيت القصيد
مدارس العلم بكت بعده
فهو لعمر الله نعم الفقيد
ام المعالي عقمت بعده
هيهات ان تأتي بمثل الفقيد

في روضة الجنات قد ارتحو
حلى بدار الخلد فرد سعيد.

وعن المقبرة الصغيرة التي ضمت رفات ثمانية علماء قال " انها تضم قبر المرحوم الشيخ العلامة عبد الوهاب النائب- ولقب النائب هو لقب حصل عليه في ايام الدولة العثمانية. وقبور اولاد الشيخ فؤاد وهما من العلماء أيضا ، الشيخ حسن النائب والشيخ عثمان النائب. وقبر العلامة سعيد النائب اخ الشيخ عبد الوهاب وأولاده الشيخ جلال النائب وعلاء الدين النائب والشيخ بهاء النائب.

محلة الفضل

التفت الحاج فؤاد الى بعض كبار السن وتحدث معهم برهة من الزمن. وكأنه يريد ان يؤكد كلامه ثم قال " نبدأ من شمال المحلة فهنالك محلات صغيرة ارتبط اسمها بمحلة الفضل وهي خان لاوند والعزة والجوبة وكهوة حوري وعزة طوالات وفضوة قرة شعبان. ثم الدركزلية ومحلة سيد عبد الله ومحلة المهدية وشيخ حديد

دراين وست هدية —قالوا انها بنت للامام الكاظم- ثم الحمام المالح والقراغول ومحلة تبة كرد والمجارية والغالبية ومحلة السور ثم مركز الفضل و حمام عيفان . من المقاهي الموجودة فيها مقهى علي ومقهى حسين المختار ومقهى رفيق. ومن حماماتها حمام السعادة وحمام الجمهورية وحمام الكفاح وهو نسائي ورجالي. وهنالك سوق كبير يسمى سوق الفضل تباع به الفواكه والخضار وكذلك المواد المنزلية المختلفة.

أصول تاريخية

أما في كتاب الأصول التاريخية لمحلات بغداد للدكتور عماد عبد السلام فيذكر الاتي" تقع محلة الفضل بين محلات خان لاوند والبارودية وحمام المالح منسوبة الى جامع الفضل الواقع هناك وهو جامع قديم العهد ويرجح انه انشيء عند قبر الفضل بن سهل بن بشر الاسفرائيني في سنة ١٢١١ هجرية فأمر بشراء بعض الدور المجاورة له والحقه به واوسع فناءه ومصلاه فصار يسع مئة من المصلين وقد وصفه الراوي بقوله هو جامع رحب المصلى عقدت على مصلاه قباب بالجص والآجر. يقوم بين جدارين الأمامي والخلفي سواري البناء. وفي وسط الجامع مصلى (دكة) للصلاة في الصيف ، له باب من غربه وباب أخر عند الزاوية الشرقية على الدرب المؤدي الى جامع حمام المالح وفوق الباب الغربي مئذنة شامخة وفيه غرف سفلية وعلوية في شماله وشرقه لأقامة الطلبة وفيه مدرسة واقعة عند الرواق الشرقي الذي عند قبر محمد الفضل وقد سمي باسم الإمام المدفون فيه وهو محمد الفضل بن اسماعيل بن جعفر الصادق ولا صحة لهذا النسب لان محمد بن الفضل بن اسماعيل لم يتوف ببغداد ولم يدفن فيها وقد ذهب المرحوم عباس العزاوي الى انه قبر الوزير محمد بن الفضل- فضل الله رشيد الدين صاحب جامع التواريخ.

كان الجامع يزار كل ليلة جمعة وتوقد حول مرقده الشموع. وعند راس الامام صخرة زرقاء —لم نجد أي شيء من ذلك هناك – وللنساء فيها اعتقاد تام تضعها المريضة على ظهرها فتشفى.وقد خصصت لهذا الجامع اوقاف كثيرة في الخالص وقرية هبهب في ديالى. وكان في هذا الجامع مكتبة كبيرة فيها انواع الكتب العلمية مخطوطة وغير مخطوطة ..... ولم يتبق من هذه المكتبة شيء يذكر. ومحلة الفضل قرب الجامع وتضم ثلاث محلات وفي ولاية عبد الوهاب باشا سنة ١٣٢٠- ١٩٠٢ ميلادية قسمت الى محلة سيد عبد لله ويدعون بأنه ابن الكاظم والصحيح بأنه أبو عبد الله بن محمد بن ابي المعالي سعيد بن ابي طالب يحيى بن ابي الحسن علي الحجاج المعروف بابن الدبيثي. وهنالك محلة قريبة تسمى محلة عيفان على اسم رجل يدعى عيفان بن صالح البناء وقد بنى فيها الحمام المعروف بحمام عيفان (عبد الحميد عبادة، العقد اللامع باثار بغداد والمساجد والجوامع ص١٩٠-٢٠٠)

محلة الوزراء

قال الحاج فؤاد: محلة الفضل من المناطق الشعبية القديمة في بغداد حيث سكنتها عائلات مرموقة وذات مكانة عالية في المجتمع وظهر في المنطقة عدد كبير من الوزراء في زمن حكومة نوري السعيد باشا ومن البيوتات المعروفة فيها بيت (كنة) حيث كان هنالك ثلاثة وزراء من هذا البيت وكذلك سكن فيها الزعيم عبد الكريم قاسم.

محلة الفضل تضم مختلف القوميات في العراق العربية والكردية والتركمانية ومن طوائف شتى وكلهم عاشوا في محبة ووئام ، وهنالك تكاتف بين أهلها وترابطهم الجيرة الطيبة والصداقة الحميمة ،اذ يجتمعون في المناسبات المفرحة والمحزنة .اما ما اشتهرت به المحلة من انتشار اسماء بعض الأشقياء المشهورين فيها فقال " انهم من الشباب المتسكعين الذين لاعمل لهم وهؤلاء ليسوا من سكانها الأصليين مثل خليل أبو الهوب وجبار ابن بهية وموفق ابو العضلات.

العلامة مصطفى جواد

واضاف الحاج فؤاد....كنت أقدم خدمات إلى العلامة مصطفى جواد حينما سكن المنطقة وكان جاراً لنا بعد ان قدم هو وأمه من ديالى ، وعمل مدرسا وكانت أمه امرأة طيبة رحمهما الله ،وكانت تزورنا كثيرا وحينما ياتي كنا نقول لها لقد جاء ابنك مصطفى . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الوزيرية خلف بناية السفارة المصرية القديمة وكان يرسلني الى الأستاذ علي الوردي او الى عبد الرزاق الحسني حينما يطلب منهم بعض الكتب التي تهمه، رحمه الله كانت اخلاقه عالية، لم يره احد يقف امام باب داره مطلقا.

الدعوة الاخيرة

خرج الحاج فؤاد من الباب الشمالي عبر الجدار الذي ارتفع الى عنان السماء، و بعد ان القى التحية على من كان موجوداً في المقهى التي تجمع فيها عدد كبير من الأشخاص يحتسون الشاي الساخن ، يقابلهم فرن صمون تنبعث منه رائحة طيبة. وغير بعيد عنهم لا تزال بعض صور مرحلة الانتخابات الاخيرة لم تتأثر بالمطر المتساقط على جدران الازقة ، ثم خرج الى شارع الكفاح الذي كانت المحال العديدة تلاصق الجامع فقال" الا يمكن للأوقاف ان تمنح الجامع إيجار احد المحال التي بنيت في مكان مدرستها".

***من مدرستها تخرج الرصافي والزهاوي**

***أين اختفت مكتبة جامع الفضل التي كانت تضم مخطوطات مهمة؟**

***مديرية الاوقاف اخذت الصندوق الخشبي المصنوع من الصاج كغطاء لمرقد الامام محمد بن فضل ولم تعده!**